مبارك الخاطر..
الأديب الشاعر

أرأيت ذلك اليم المحيط، وأنت تقف عند حافة أحد شواطئه، هل لك أن يدرك بصرك آخره؟ أم هل لك أن تلم بما يزخر في أكنانه من عباب وأصداف ولآلئ، وصنوف مما لا يدركه سوى شعورك بأنه يوجد هناك شيء؟ هكذا أنا.. حين أردت أن أدبج بياض الأوراق بكلمات عن أدب ذلك الأديب، فماذا عساي أن أقول ؟؟ وماذا عساي أن أسطر لأعبر، وأسجل لأوصل ؟؟ أأتحدث عن مبارك الخاطر الأديب، أم الشاعر المفكر، أم الشعر في صورته (الخاطرية)، أم الأدب في صورته العملية عند الخاطر، أم عن الهم المعتلج في أدب الخاطر، وروحه ونفسه؟؟

إن كل جانب من هذه الجوانب الدقيقة في أدب الخاطر يحتاج وقفات طويلة لكني سوف أتناول محورين عامين، وهما محور العمل الأدبي، ومحور الإبداع.

لكن قبل ذلك، لنتسلل قليلاً خلف مرايا التاريخ، نتلمس شآبيب الشعر وبداياته عنده، ولن تجد من يحدثك عن ذلك الآن سواه هو، في مقدمة ديوانه «الصك»، ذلك الديوان الذي بيّت له أن يستلم نسخه من مطار البحرين يوم السبت الأول بعد وفاته (في ليلة الجمعة الخامس من محرم عام ١٤٢٢ هـ) ، ولم يتم مأمله.. هكذا أخبرني يوم رحيله صباحاً!!

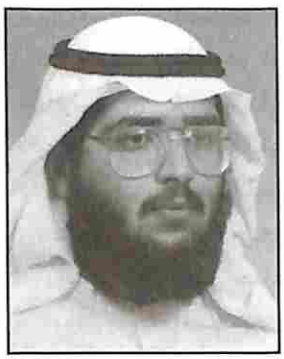

بقلم: خليفة بن عربي
البحرين

إن بداياته الشعرية كانت بدايات أصيلة، استظهر فيها المعلقات السبع، وألفية ابن مالك – على الرغم من عدم وجود علاقة بين الألفية والشعر – وكمّاً وافرا من الشعر الأموي والعباسي والشعر الحديث، من شعر شوقي وحافظ والبارودي ومطران وشعر المهجر. لكن أمرين كانا الأساس في تكوينه الشعري، الأول : التشجيع الثلاثي المتتالي من شيوخه المحمدين الثلاثة: محمد صالح يوسف، ومحمد صالح العباسي، ومحمد بن علي يعقوب الحجازي. الثاني : الأشعار المأتمية التي تطوف بأذنيه وذهنيته المتوقدة، وهو يندس مع أترابه في أكناف المأتم الحسيني في ليالي عاشوراء وأيامه، ليتلذذ بالطعام والشراب قبل كل شيء، كان ذلك في قرية طفولته (سماهيج).

فشب ونشأ أديباً يتسقط مظان الأدب، ثم اختلطت تلك الموهبة الخصبة بتوجهه الإسلامي المستقيم الذي طفح على ظواهره مبكراً أيضاً، فصهره، ثم أنتجه ثانية.

مبارك الخاطر، الأديب المجاهد

اتصل الأستاذ مبارك بقياديي الحركة الإسلامية منذ حداثته، فجال يفتش عن عمل منظم يجمع الأدباء الإسلاميين على كلمة واحدة ورأي واحد، وجهد واحد، فكانت رابطة الأدب الإسلامي العالمية. هذه الرابطة كانت هاجساً يراود عددا من الأدباء الإسلاميين من مختلف الجنسيات، ثم بدأت تتجسد في لقاءاتهم التي بدأت عام ١٩٨٠م، إلى أن استقر رأيهم على تكوين هيئة تأسيسية تدرس أبعاد الفكرة وتخطط لها، وتراسل الأدباء في سائر الأقطار الإسلامية، ثم كانت الندوة العالمية التي دعا إليها سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي – يرحمه الله – في لكنو بالهند عام ١٩٨١م، ودعي إلى هذه الندوة عدد كبير من رجالات العالم الإسلامي، وفيها اتخذت توصية مهمة تتضمن (إقامة رابطة عالمية للأدباء الإسلاميين)، ثم كانت ندوة الحوار حول الأدب الإسلامي التي عقدت في رحاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٩٨٢م، والندوة الثانية في رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٩٨٥م. كل هذه الإرهاصات لإنشاء الرابطة كان الخاطر –رحمه الله– متابعاً لها، نظراً لما كان يتمتع به من تواصل فريد مع رجالات الفكر الإسلامي القويم من أمثال سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي. ثم لما دعت الهيئة التأسيسية إلى المؤتمر العام الأول للرابطة في لكنو بالهند عام ١٩٨٦م كان الخاطر من أوائل الملبين لهذه الدعوة، وفي هذا الاجتماع تم وضع النظام الأساسي للرابطة، وانتخاب مجلس الأمناء وانتخاب سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رئيساً للرابطة.

وفي عام ١٩٩٥م أنشأ الخاطر حلقة رابطة الأدب الإسلامي العالمية في البحرين متبناة من قبل جمعية الإصلاح، وأصبح هو رئيساً لها، حتى وفاته –رحمه الله– وفي هذه الحلقة حلق بجهده وإخلاصه، وكان السبب الأول في إقامة الكثير من الفعاليات الأدبية والشعرية. لقد عمل مبارك الخاطر جاهداً في سبيل نشر الفكر الأدبي الراقي الذي يلامس المشاعر، ويحقق الرغبات الإنسانية الفاضلة النبيلة، وبالتالي فإن له مواقف مشهودة في الدفاع عن نبل مبدئه، والوقوف في وجه دعاة مسخ الأدب والتراث العربي.

الخاطر شاعراً

في هذا المضمار نتحدث عن الأغراض التي كان يطرقها في شعره، واضعين في أذهاننا أن محيط التراثية التقليدية كان مسيطراً على إبداعه كله. وفي ظني أن دراسة الخاطر شاعراً قد لا تجد خصوبة في مجالها الفني لو عددنا الشعر تحليقاً في رحابة الخيال الواسع، إذ لا نكاد نجد عنده ابتكاراً في الصور أو

التراكيب. لذا فإنه لم يبدع لنفسه لغة خاصة يتسم بها، أو نمطا باهرا من الطرائق الفنية التي يوسع بها مدارك النص، فهو غالباً ما يستخدم لغة تقريرية يصل بها إلى خدمة غرضه بصورة مباشرة لكن قد يقع له التوفيق أحياناً في استحداث ما هو رائق.

إنما دراسة شعر الخاطر قد تكون مثرية لو صبت في محيط الأغراض التي يكتب فيها، إذ كانت منوعة وربما جديدة، ولعلك تلحظ هذه الجدة في أول ديوان صدر له وهو «أحاديث سمك»، الذي ألف فيه منظومة مزج فيها بين علمه كمؤرخ، وبين فنه كشاعر، فشكل بذلك عملاً أدبياً فريداً من نوعه، إذ عمد إلى المزج بين الشعر والتراث، ولعله صنع ذلك في أول ديوان شعر يصدر له رغبة منه في إبراز إجادته في فكره الذي وصل إليه بعد تلك السنين الطويلة من الخبرة، فقد سجل صوراً «بانورامية» - كما يحلو له أن يقول في مقدمة الديوان - عن أساطير السمك المنتشرة في روايات البحرينيين قديما، ورسم إطارا حركيا بديعا للمجتمع البحريني القديم، وقدم مسحا رائعا لماهية الحياة آن ذاك، حين كان السمك وكل ما يتعلق به من بحر ولؤلؤ، يشكل حياة الإنسان البحريني البسيط، لكنه استخدم هذه الأساطير غطاء لغرضه الخفي في الديوان كله وهو السخرية الأدبية. فقد كان إنساناً ساخراً في مجمل أحواله، ومن عرفه ولو لوهلة يلحظ تلك الروح المرحة التي تحاول أن تضفي على كل شاردة من شوارد الحياة مسحة ساخرة، يدلف من خلالها إلى مرام عميق لا يفهمه إلا حصيف الذهن، فمن من الذين عاشره لا يذكر جمله الرنانة كأمثال (المؤمنون حلويون) و (نتشرد أقصد نتشرف) و (أنت من طوالستان ونحن قصارستان) فقد كان قصير القامة و (أخي جاوز الظالمون المدى ومعدتي ما فيها غدا) وغيرها مما عرف عنه. إن هذه الحياة الساخرة انعكست بجدية بديعة في أدبه، ليس في «أحاديث سمك» فقط، بل في معظم قصائده في الصك كقصيدة (الصك) نفسها، و(قِرى رمضان) المشهورة و (صلاة لاستسقاء النفط) و (لجنة الوفيات) و (هضولة) والكثير الكثير. ولن أبعد النجعة حين أقول: إن الأدب الساخر كان يحتل مساحة هي الأعرض في أدبه.

الخاطر .. في جمعية الإصلاح

ونحن لا ننسى على الأقل قصيدته (قرى رمضان) التي كان يتلوها على مسامعنا سنوياً كل رمضان، والتي وصف فيها مملكة (الجزارين)وبروتوكولاتهم الغامضة، التي يوهمون بها الزبائن باللحم وهو عظم بائن لا محالة، كما سحر أصحاب فرعون الناس، اسمعه وهو يخاطب أبا حُجر (امرأ القيس) ويقول:

أبا حجر أقص عليه دعني ... حكايا عن جزارتنا شهارا
فعن ثيران كالألواح سلني ... فإني اجتزت فيها الاختبارا
كأني في مسالخنا مجاز ... لنحر هلائم الدنيا.. اختيارا
مهازيل إذا قاءت خوارا ... تجيء به نشازا لا يمارى
عجاف من سنين عزيز مصر ... ويوسف ما أجاز لها انتحارا
فجاءتنا لتنتحر انعتاقا ... ومما عُمرت ترجو فرارا
لتنحر في مسالخنا قراء ... إلى رمضان.. شحا وابتسارا
وما نمتار منها باختيار ... وما نقتاته إلا اضطرارا
إلى لحم الخراف وكل عجل ... سمين عن أكابرنا توارى
ترى الجزار علقه كطعم ... يصيب به من الشارين ثارا
يريك كأنما قد قَدَّ منه ... هبارا وهو ما مس الهبارا
كأن بكفه السكين صارت ... عصاة مشعوذ.. أنى أشارا
تمغنطتا بحقل من عظام ... فيجذبها وتجذبه.. اعتوارا
يمس اللحم بالسكين مسا ... خفيفا.. يجتبي منه النشارا
كأن قد قَدَّ من جنبيه شلوا ... إذا ما قدَّه مزعاً صغارا

أما أغراضه الأخرى والتي كان يدخل إلى أغلبها أيضاً عن طريق السخرية، فهي كثيرة،

ولعل الهم الإسلامي، ومشاركته المسلمين أحزانهم كان غرضاً جلياً عنده، ولا غرابة في ذلك، فهو الأديب المسلم الغيور على دينه، والمتعاطف مع قضايا المسلمين الكبرى، وقضية فلسطين تحتل حيزاً كبيرا من همه، اسمعه يخاطب الطفل الفلسطيني في قصيدته (بيان بالحجر).

وقع عقود خلاص بالدماء إذا
جاد الشهيد بها.. سُمًّا بلا حذرِ
وقع عقودك بالأحجار تنحتها
من جانب الطور.. من جلموده الوعرِ
واقذف به فكرا جاءتك ناقلة
مبادئا من خصوم الله للبشرِ
يلونون بها ثوراتكم وإذا
لم يظفروا.. وسموها وسم محتقرِ
ثوراتكم صيغ عظمى يفجرها الـ
إيمان بالله. لا الإيمان بالحجرِ
موحدون سنجلو كل مكربة
عنا من التيه أو من زلة الفكرِ
سنسترد فلسطينا وإن رزحت
– ردحا من الزمن المشؤوم – في عُثُرِ
فيا فلسطين.. هذا بعض مجدك والـ
آتي سينقش ختم النصر في الحجرِ

أضف إلى ذلك الرصد الدقيق للوقائع الحيوية التي تمر عليه يومياً، ووقائع التاريخ بشكل عام.

وربما تناول أغراضاً تبين عن عمق فكره، فكم احتلت (الشعوبية) حيزا في ذهنه، وكم أسرَّ لي بأسماء أناس يرى أنهم ما زالوا يحملون هذا الفكر المقيت الذي استوى على سوقه في عصور العباسيين، ثم يدلل على تعصب أولئك من كتاباتهم أنفسهم. وقد أشار إلى ذلك – ضمنا – في آخر ما رقمه من شعر، وهي قصيدة بعنوان (ومضة) فكان مما قال:

هي البحرين.. لا تألوا انتماء إلى صلب العروبة ذي الرواءِ
وكانت كالسليبة يوم أقعى بها (نَصُورُ).. ساساني الرداءِ
وكانت فلذة من كبد صقع عروبي الوشائج والرواءِ
فعادت فلذة سلبت فردت إلى جسد العروبة بالولاءِ
فكم مما سلبنا من بقاع عروبتها سترفل في الشقاءِ
فمن لي بالشعوبيين.. إني خبرت لبوسهم.. ذا الافتراءِ

مبارك الخاطر والغزل

ونأتي أخيرا إلى غزل مبارك الخاطر ، وهذا فصل أحسب أني لو أطلقت عنان قلمي فيه لوشيت أسطراً وأسطراً، إن فكرة الحب التي يتناولها الخاطر من خلال كم هائل من قصائده، ما هي إلا سمو نبيل يطمح للوصول إليه. إنه يدرك تماما أن هناك شيئاً يمكنني أن أسميه ما وراء الحب. فالحب عند الخاطر يتمثل في ظل المرأة التي لم يستخدمها في قصيدة مبتذلة رخيصة، بل جعل من تعلق نفسه بنفسها سلما يوصل إلى عوالم وضاءة من الأمل والصفاء الروحي، إن الحب عند الخاطر يرجع ذكراي إلى الحب عند الرافعي، الذي قال فيه :« ... وإن الحب ليكاد يكون معنى كبر في السن والقيمة والعقل عند ذلك المعنى الطفيلي الذي يندمج بالألم والابن معا في الوجود والعاطفة، فإذا كانت الأمومة هي التي تلد حقيقة الحياة بمعانيها ومجازها، ومعانيها الخيالية الجميلة، فمن ثم لم يكن الحب رحما، وهو أشد منها صلة وأوقع في القلب، ولم يكن نسبا، وهو فوق النسب، ولم يكن دما من دم، وهو أشد ما عرف من حنين الدم للدم » استمع إلى الخاطر وهو يقول:

أهواكِ فكرا حصانا عن مزالقة الـ
أفكار من شطحات الرأي في الدينِ
أهواكِ مدخرا للعلم صادعة
بالحق في دأب بالشد واللينِ
أهواكِ وارثة فيما أدبجه
في خدمة الوطن الغالي.. فمُدِّيني ■